الوثوق بقول مؤرخ متأخر الزمان مهما كان ثقة في روايته وخبيراً بحل طلاسم الآثار الطامسة وبهذا القدر كفاية من ايراد النتائج المستخلصة من اقوال الشعراء على الطريقة الاولى وهي طريقة الجمع وسنورد ابحاثاً اخرى على الطريقة الثانية اي طريقة التنسيق

امين ظاهر خيرالله

عروسة النيل

الفصل الحادي والثلاثون

واشقاء المحبين انهم لا يكادون يذوقون طعم الهناء حتى تفاجئهم التعاسة من حيث لا يدرون فقد كان اوربون يستسهل الموت في سبيل مرضاة محبوبته ويتمنى لو تعرض لهُ فرصة تمكنهُ من ابداء شهامته ومروءته وشدة اخلاصه في حبها وهو يحسب ان السعادة بسمت لهُ بعد عبوسها واشرق كوكب سعده بعد غروبه لكنهُ لم يكد يخرج من بستان روفينس حتى اسودَّ الضياء في عينيه ورأى خيبة الامل ماثلة امامهُ فاستغرب هذا الانقلاب وعجب لباولين كيف سمحت مجالاً في قلبها للريب ففرَّق ثالث بينهما كما فعلت الرئيسة تلك الراهبة التي ناصبتهُ العداوة يوم عقد النية على المجازفة بحياته وماله سعياً لانقاذها وانقاذ من في ديرها فقابلت معروفهُ واحسانهُ بالطعن فيه وتحويل قلب باولين عنهُ فكاد يصيبهُ مسٌّ من الجنون ولولا وعدهُ لروفينس بان يشاركهُ في سفره لاقلع عن عزمه في تلك الساعة ولما بلغ البيت اسرع الى غرفته واستلقى على مقعد وهو يضرب اخماساً لاسداس وتمثلت لهُ باولين باكية شاكية مترددة فاستاء لتردها وطفق يفكر في وسيلة ترجعها عن غيها ولمَّا اعياهُ الامر نهض ومشى الى غرفتها فرأى قيثارتها مسندة الى الجدار فتناولها ونقر عليها لحناً فلم ترقهُ رنَّتها فطرحها من يده واخذ قيثارتهُ فعزف بها عزفاً دلَّ على ما كان يجيش في صدره من الحب والغضب والقهر وكان نقرهُ شديداً لما هاجهُ من واقعته مع حبيبته فلم ينته من الدور حتى انكسر عامود القيثارة وحينئذٍ طلع عليه كاتبهُ فقال

— اتى رسول بهذا اللوح وفيه ان يوستينوس وقرينتهُ في منف ويطلبان اليك ان توافيهما الى الفندق فلهما معك حديث ذو شأن

— ايوستينوس في منف وافرحناهُ فقد صار في طاقتي اذاً ان احفي بهم واكرمهم فاكافئهم على بعض فضلهم وسابق جميلهم فرهم يعدُّوا المركبة وقل لسبك ان يهيئ غرف الضيوف

لنزولهم وليعطهم غرفتي هذه ايضاً فهذه بشرى لم اكن لاحلم بها ولا تبطئ في اعداد البيت فانا ذاهب اليهم . قال هذا واصلح ثيابهُ واسرع الى غرفة امهِ فانبأها بقدوم اصدقائهِ فقالت اهلاً وسهلاً بهم فلينزلوا هنا على الرحب والسعة فاننا لا ننسى ما لهم عليك من الايادي البيضاء ايام كنت في القسطنطينية ومن الواجب عليك بعد هذا تأجيل سفرك فتبقى في منف لتقوم بنفسك على اكرامهم والعناية بهم فبلغهم سلامي واعتذر اليهم عن احتجابي فانا كما ترى لا استطيع لقاء الناس. وبعد قليل ركب اوريون مركبتهُ ولم يكد يصل الى الفندق حتى رآهُ يوستينوس من النافذة فلوّح منديلاً كان في يدهِ ثم دار الى زوجتهِ فقال جاء صديقنا

فابتهجت المرأة وكان الى جانبها فتاة بارعة في الجمال فقالت لها

— اتفضلين لقاءهُ هنا ام تختبئين حتى نطلعهُ على قدومكِ

— ارى ثاني الرأيين افضلهما

— اسرعي اذاً فاني اسمع وقع اقدامهِ

وكان يوستينوس وزوجتهُ خُلقا ليقضيا الحياة معاً لما بينهما من التشابه في الاخلاق والصفات وكان كلاهما على سعة من الثروة والجاه يعصمهما غناهما ورفعة مقامهما عن الاهتمام بالمال والتقيّد بالعادات والازياء المتبعة في ذلك العصر وكانا مشهورين بالكرم وحب الضيافة فلا يكاد قصرهما يخلو من الضيوف والاصدقاء لا سيّما اولئك الذين الفوا في بيتهما من الحرية القول والفكر ما لم يكن معروفاً لذلك العهد في بيوت العاصمة ولم تكن مارتينا من البارعات في الجمال لكنّ لطفها ورقتها كانا اشدّ وقعاً من الجمال فحببا الى جميع من عرفها وكانت تميل الى عشرة الشبان والشابات لما تراهُ فيهم من كرم الاخلاق وعدم الاكتراث لامور العالم فلما ترملت دورا زوجة ابن اخيها كفلتها وضمتها الى بيتها ولقيها اوريون هناك فعاشقها حتى اشتهر امرهما في القسطنطينية وكان لها ابن اخ غير المتوفى ضابط في الجيش الامبراطوري فلما نشبت الحرب بين الروم والعرب شهد معركة من المعارك فسقط فيها قتيلاً ولم يعرف شيء من امرهِ فاخذا يبحثان وينقبان بمعونة المقوقس وابنهِ علهما يعثران على جثتهِ فيدفنانها بالاكرام اللائق فعلما انهُ لا يزال حيًّا يرزق وانهُ اسير في بلاد العرب ثم اتاهما كتاب من الضابط نفسهِ يصف فيهِ ما يلاقيهِ من العناء ويتوسل اليهما ان يسعيا في انقاذهِ بواسطة عمرو بن العاص فاسرعا في المجيء الى مصر ورافقتهما دورا الارملة يدفعها دافع الشوق الى رؤية اوريون وكانت زوجة يوستينوس قد نصحت اوريون ان يتزوج دورا حبًّا منها بالاثنين فاعتذر بقولهِ ان اباهُ يعقوبي فلا يقبل بزواجهِ من ملكية فسكتت ولم تجر جواباً لكنها قالت في نفسها اذا رأى المقوقس

دورا وشاهد جمالها وعرف محاسنها وخبر لطفها الساحر وسمع صوتها الرخيم فتناها عروساً لابنهِ فانها كانت من اجمل غادات القسطنطينية بقامةٍ كالرمح وعينين ماؤهما يذيب الصخر وصوت يسبي القلوب ورقة ولطف وكمالٍ هذا فضلاً عن رفعة حسبها ووفرة غناها ثمَّ جعلها قبلة الناظرين فلم يبق بين شبَّان العاصمة من لم يحم حولها فلمَّا عوَّل يوستينوس وزوجتهُ على السفر الى مصر رأت هذه ان الفرصة حانت لاتمام مرغوبها فاستصحبت دورا معها ولمَّا بلغهم نعيُ المقوقس في الاسكندرية اتخذتهُ بشير النجاح وحسبت انهُ لم يبق ثمَّ مانع يحول دون اقترانهما

لما دخل اوريون عليهما حياهما تحية الصديق المشوق فلقياهُ بالترحاب وضمَّهُ يوستينوس اليهِ فقبلهُ وفعلت زوجتهُ كذلك ثم قالت بربك كيف استطاع اسلافك العظام القيام بافعالهم المجيدة في هذا الحرّ الشديد فاني اراني اذوب كما يذوب السمن ثم دعت خادماً فامرتهُ بان يأتي بكرسي وشيء من الشراب المبرَّد وجلس الثلاثة يتحدثون فاطلعهُ يوستينوس على علة مجيئهم وطلب اليهِ ان يسهِّل لهُ لقاء عمرو وان يكلمهُ في شأن الاسير فقال اوريون حبًّا وكرامة ولكن عمرًا سيغادر الفسطاط بعد يومين ذاهباً الى المدينة وانا مسافر الليلة فوقع كلامهُ هذا وقعاً سيئًا في نفسيهما وبدت امارات الكدر على وجهيهما فرأى اوريون من اللياقة اطلاعهما على علة سفرهِ والداعي اليهِ فلمَّا بسط الكلام سفَّها رأيهُ وقال يوستينوس اخطأت خطأً كبيرًا فانت زعيم اهل منف واكبر اهل مصر فاذا قمت بهذا العمل تداعت اركان نفوذك وسلطتك عليهم وكان الاولى بك مصادقة البطريرك لا مغاضبتهُ فتختفان باتحاد سعيكما وطأة حكم الاجنبي على اهل بلادكما فانصحك ان تقلع عن غيك لا خوفًا على حياتك ولا كرهًا بالراهبات بل لما ذكرت واذا تأملت كلامي رأيت وجه الصواب فيهِ. فعرض اوريون عليهِ ان يعبرا النيل ساعتئذٍ فيذهبا الى عمرو ويطلب معونتهُ فارتاح الشيخ الى اقتراحهِ واسرع الاثنان وركبا مركبة اوريون فلما بلغا الفسطاط قيل لهما ان عمرًا خرج يستعرض العسكر فلا يعود الاَّ في الليل وقد يبطئ قدومهُ الى الصباح فعادا ادراجهما وفي اثناء غيابهما جاء خدم القصر فنقلوا امتعة الضيوف اليهِ واتوا بالمركبات فركبتها مارتينا ودورا والحشم وسرَّت مارتينا بحسن موقع القصر وبهاء غرفهِ وما فيها من نفيس الاثاث والتحف واكبرت اتساع البستان وكثرة الازهار والرياحين فيهِ فلما عاد زوجها واوريون من الفسطاط وحدثاها بخيبتهما خيَّم الحزن في قلبها فقالت لاوريون انما اخفاقك بقضاء الله فليس سفرك من مشيئتهِ فالاولى بك البقاء معنا فنسعفنا في ادراك غاية نبيلة محمودة فتخلص ذلك التعيس من ربقة العبودية. فاصرَّ على عزمهِ فقالت وهب ان عندي ما يبقيك فاجاب لا شيء يحول دون ذهابي قالت سنرى في ذلك قريبًا ثم دارت الى الشباك فاذا السماء

بلون الدم والشمس تكاد تتوارى وراء الاهرام فصاحت ما ابهى هذا الغروب وما اجملهُ فكأنَّ مصر والاهرام شعلة من النار فتعال يا اوربون وانظر ما اعددت لك ولنبدأ بهذه الحلية قالت ذلك ودفعت اليهِ سوارًا من صنع اليونان القدماء مرصعًا بالحجارة الكريمة ومنقوشًا نقشًا بديعًا ولما حاول ان يشكرها قاطعتهُ وقالت هلمَّ وانظر البقية ثم فتحت الباب المؤدي الى غرفة باولين فاطلت رأسها وعادت اليهِ فدعتهُ الى الدخول قائلة هناك تجد هديتي الاخرى فتعجب اوربون لكلامها ولكنهُ لم يطأ عتبة الباب حتى رأى دورا واقفة عند النافذة والابتهاج ينبعث من عينيها وقد طوت ذراعيها على صدرها كأنها في وقفتها قديسة تنظر آية من آيات السماء او فرحًا من افراح النعيم فلما وقعت عين اوربون عليها امتقع وانتفض واعتراهُ الذهول فجمد مكانهُ ولحظت مارتينا ذلك منهُ فعادت الى زوجها وقالت لقد جاء اللقاء على ما اشتهي فانهُ لما رآها وقف كمن اصابتهُ صاعقة واذا صدق حدسي فسنشهد عرسًا على ضفاف النيل

— هنا حما الله فذاك من احب الامور اليَّ على اني اتمنى قبل كل شيء ان تقنعي هذا الفتى بضرورة اقلاعهِ عن جنونهِ ففي عملهِ هذا هلاكهُ ولم يفتني ما لقيهُ من الحفاوة اليوم في دار امير العرب وعندي ان ليس في مصر من يكفل لنا مساعدة عمرو سواهُ فلا بدَّ من بقائهِ

— او عندك ريب في ذلك الآن فقد رأى دورا فلا شيء يزحزحهُ بعد من مكانهِ ثم شرعت تكلمهُ في شؤون مختلفة حتى اذا ما فرغا طلب اليها ان تذهب اليهما فصدعت باشارتهِ

ولما رأت دورا اوربون لم تستطع الوقوف فانطرحت عليهِ واخذت تبثهُ شوقها وتصف ما قاستهُ من جراء بعادهِ حتى كاد يغمى عليها فطفق يلاطفها ويجاملها ويرحب بها فسألتهُ عن سفرهِ وتوسلت اليهِ ان لا يركب متن الشطط فيغرر بنفسهِ ويلقي بها في التهلكة الى ان قالت أجب سؤلي وابقَ الليلة في منف وسافر غدًا اذا شئت واذا اردت قتلي بعد ذلك فافعل ايكون لقاؤنا وداعًا بعد ان بكيت فراقك وكدت اذوب شوقًا اليك اتذهب في مهمة قد يكون بها ذهاب حياتك فاموت حزنًا واسفًا فلا تذهب ان ذهابك يقتلني وكانت تكلم وعيناها تستغيثان بهِ فاشعلتا ما خمد في قلبهِ من نار حبها فقال في نفسهِ ومن لا يحب امرأة كهذه جمعت الحسن والظرف لا تبغي من حبيبها سوى حبهِ الخالص غير حذرة او خائفة فقد احتملت عار الانتقاد والتهكم فاصغت الى صوت قلبها مع علمها باني هجرتها وأبيت ان اتزوجها. فخلت لبهُ في تلك الساعة كما سحرتهُ عيناها لاول عهدها باللقاء اما هي فعادت تتوسل اليهِ وتحبب اليهِ البقاء حتى فرغت جعبتها فقال سأرى ما اذا كان التخلص من وعدي في يدي ولما قال ذلك مثلت امامهُ صورة باولين وسمع هاتفًا يقول لهُ ان باولين المرأة الكاملة لا هذه الفتاة الضعيفة

القلب والارادة فتنبه وافاق من سكره وندم على ما بدا منهُ من الضعف والتسليم الى هواهُ فسلَّ يدهُ من يدها وجلس يحدثها وهي تطالبهُ بالبقاء وتذكرهُ بما يتوجب عليهِ من اسعاف عمها وانقاذ الضابط حتى ألانت قلبهُ فوعدها خيرًا فصفقت بيديها فرحًا وخرجت الى حيث عمها وزوجتهُ فقالت سيبق اوريون فلن يسافر الليلة فسرُّوا سرورًا عظيمًا ووقف الاربعة يتكلمون وفيما هم كذلك دخلت كاترينا ومرضعها آتيتين لتزورا انويس بعد سقطتهِ فلما رأت اوريون ودورا وشاهدت جمال هذه اعترتها الدهشة وقالت في نفسها اترى هذه حبيبتهُ التي اشار اليها او هي احداهن فيخدعها كما خدعني. ورأتها دورا فدارت الى اوريون وقالت أأختك ام ابنة اخيك فدعا كاترينا وعرفها بضيوفهِ حتى اذا ما ذهبت قالت مارتينا انها حسنة الصورة خفيفة الروح كأنها عصفور فاجاب اوريون

— وهي اغنى بنات منف . فاطرقت دورا ولم يفت ذلك اوريون فقال وكانت امي ترغب في زواجنا ولكننا مختلفا الاذواق وفي قامتينا فرق عظيم. ثم استأذنهم واسرع الى نيلس فاطلعهُ على ما ارتآهُ من البقاء وفصَّل لهُ الاسباب التي حملتهُ على تغيير خطتهِ وكلفهُ ان يذهب الى روفينس فيعتذر اليهِ بالنيابة عنهُ فرقص الخازن طربًا وطوقهُ بذراعيهِ وقبَّلهُ فرحًا وعاد اوريون الى ضيوفهِ فتعشوا وسهروا الى ما بعد نصف الليل وفي الصباح ذهب يوستينوس واوريون الى الفسطاط فقيل لهما ان عمرًا سار توًّا من عين شمس الى الاسكندرية فيغادرها الى المدينة فقال يوستينوس لم يبقَ لنا سوى لحاقهِ فقال اوريون وانا رفيقك ولمَّا عادا الى منف حاولت دورا ان تثبط عزمهُ فابى الاصغاء الى كلامها ورأى ان النوار من قبضة هذه الفتاة اضمن لسعادتهِ وفي الغد كتب كتابًا الى باولين وصف فيهِ حبهُ لها وشدة غرامهِ وعزم عزمًا اكيدًا على هجر دورا والابتعاد عن اشراكها ولما اعدَّ الخدم الخيل والمركبات ركب ويوستينوس وخرجت مارتينا ودورا لوداعهما ولما عادتا لقيتا كاترينا في البيت فدعتاها لزيارتهما اما هذه فابت واسرعت في الخروج وذلك ان انويس اطلعها على ما سمعهُ من حديث اوريون ونيلس في شأن فرار الراهبات فهرعت الى مركبتها فركبتها وذهبت الى المطران فحدثتهُ بحديث انويس وهذا اذ سمع الخبر اخذ الغيظ منهُ كل مأخذ فعبر النهر الى الفسطاط ليطلب من عمرو القبض على الراهبات ومنقذيهنَّ ولما انبئ بغيابهِ لقي عبادة فحدثهُ بما كان

الفصل الثاني والثلاثون

ولم يبطئ نيلس في انفاذ رغائب سيدهِ فذهب الى روفينس ونقل اليهِ كلام اوريون وبسط عذرهُ فلم يسع الشيخ الاَّ الاعتراف بفضل ابن المقوقس الى ان قال وقد اجاد في اعداد

اسباب الفرار اجادة تفتينا عن استصحابهِ وتعريضهِ للهالك وجميع ما فعلهُ يدل على شهامتهِ وكرم عنصرهِ وعذرهُ في التخلف واضح لخدمة اصدقائهِ واجب لا يستطع التخلص منهُ ولما سمعت باولين الخبر حزنت لكنها عادت فسرَّت علماً منها بان حبيبها نجا من خطر عظيم وكانت قد سمعتهُ يصف صداقة يوستينوس واهل بيتهِ لهُ وما افرغوا عليهِ من الرعاية والاكرام ايام كان في القسطنطينية فقالت في نفسها لقد احسن في انتهاز الفرصة لمكافأتهما على سابق معروفهما وغداً يأتي فأراهُ

وفي تلك الليلة قبل طلوع القمر خرجت الراهبات من ديرهنَّ متنكرات يزي الفلاحات وركبن السفينة واحدة فواحدة وتبعتهنَّ الرئيسة ثم جاء روفينس فتعلقت بهِ زوجتهُ وابنتهُ فقبلهما وقال تشددا واقتديا بهذه الفتاة الباسلة فانا مرعي بعين السلامة ما دامت عين الحب لا تنعس ولا تنام فالوداع يا خير النساء فاذا ادركني اجلي في الطريق فاعلمي ان زوجك الغبي جلب الموت على نفسهِ في سبيل انقاذ خمس وعشرين نفساً بريئة من العذاب والنفي فبكت زوجتهُ وناحت وقالت لهُ خذ البستاني معك فقد تحتاج اليهِ وقال البستاني خذني معك يا مولاي اذ لا فائدة من بقائي هنا فالازهار تذبل رغماً عني لقلة الماء وشدة الحرّ فقال لهُ روفينس اسرع وهات فراشك ثم دفع النوتية السفينة الى وسط النهر حتى غابت عن عيون النسوة وبعد قليل قرعت اجراس الدير وكانت القارعات باولين وهيلانة عملاً باقتراح الرئيسة لتوهما الناس بان اهل الدير فيهِ وسكنت الريح فقبض الملاحون على مجاذيفهم وطفقوا يجذفون الى ان غابت منف عن عيونهم لكنهم لم يكادوا يتجاوزون الفسطاط حتى جنحت السفينة فاضطروا الى النزول على البر ومعالجتها الى ان طفت ولم يزالوا كذلك حتى وصلوا عند شق الفجر الى ليتوبوليس حيث يتفرع النهر الى شعبتيهِ وانتشر ضياء كشيف حجب سفينتهم فلم يرَها الحفظة المكلفون بقبض الرسم من السفن وعند طلوع الشمس كانوا في الفرع الدمياطي وقد تجددت قواهم بما بدا لهم من تباشير النجاح ناسبين ذلك الى شفاعة الراهبات وكان ماء النهر قليلاً على غير المعتاد في ذلك الفصل فلا تقع اشعة الشمس الاَّ على حقول عارية من الخضرة وضفاف يبست فصارت كالحجر وتردَّت الحلفاء ثوباً من الصفرة عليهِ طبقة ثخينة من الغبار ولم تكن الراهبات قد اعتدن السفر ومشقاته فذقن صنوف العذاب الوانًا وغلب عليهنَّ العطش الشديد ولم يرو الماء غليلهنَّ لشدة الحرّ فلما غابت الشمس وانخفض جأش الحرارة هبَّ النسيم البليل فانعشهنَّ وردَّ اليهنَّ ارواحهنَّ بعد ان خلنَ الموت اقرب اليهنَّ من حبل الوريد فلما ازف وقت العشاء جلسنَ معاً وتعشين بعد ان لم يتناولن طعاماً النهار بطوله فلما اكتفين أخذن يتساءلن عما اذا كانت نجاتهنَّ في حكم المقرَّر فقالت

الواحدة اذا تبعنا الجند فانهم يأتون على خيولهم وقالت اخرى بل يسيرون مشاة فقالت الثالثة ومايمنعهم عن لحاقنا في سفينةٍ يدفعها عدد كبير من الرجال الاشداء وما زلن كذلك حتى طلع القمر وهدأ الليل فساد السكون في السفينة واستحوذ عليهنَّ الخوف فشرعت احداهنَّ تترنم فاقتدت بها الباقيات وصحت النوتية يصغون الى تلك الاصوات الرخيمة وبعد نصف الليل نعسن ونمن ولم يفطن احدٌ الى الضفاف لاهتمام الربان والملاحين في تسيير السفينة فلا تجنح لكنَّ الربان سمع حفيفاً في النبات والانجم استمرَّ الليل بطولهِ فلما بدا ذنب السرحان حانت منهُ نظرة الى الشاطئ الشرقي فرأى ما راعهُ فصاح بمن معهُ وقال ما هذا الذي اراهُ فدنا منهُ البستاني وقال لقد رأيتهم وسمعت صهيل خيولهم فانظر ثم اشار بيدهِ الى جواد بين الادغال وقال لقد ادركونا فامرهُ الربان بالسكوت وقال اذهب ونبِّه روفينس والملاحين وقل لهم ان يدخلوا الراهبات الى مخدع السفينة ثم اخذ يحدِّث اخاهُ فقال لاجسر في هذه الانحاء والنهر كما ترى عريض فمن اراد الدنوّ منا فانما يفعل ساعياً ولا اخالهم يجسرون على ذلك

اثمرت البذور التي بذرتها كاترينا فلما اطلع المطران عبادة على امر الفرار اسرع هذا فارسل كوكبة من الفرسان لتقبض على الراهبات والنوتية وغيرهم ممن في السفينة وتعود بالجميع الى منف فلما بلغ الفرسان ليوبوليس سألوا الحفظة عن السفينة فلم يستطع هؤلاء تعيين الفرع الذي سارت فيهِ فانقسموا فريقين في كل منهما اثنا عشر فارساً وسار الفريق الواحد حذاء فرع دمياط واتبع الآخر فرع رشيد فلما ادرك الفريق الاول السفينة نحو نصف الليل امرهم قائدهم بالبقاء على الشاطئ الى الصباح ففعلوا ولمَّا طلعت الشمس صاح بالربان وقال امرني الامير ان اعود بهذه السفينة ومن فيها الى منف فخشي الربان ان يعصي الامر لعلمهِ بما وراء ذلك من العواقب الوخيمة وبدت امارات الخوف على وجههِ فالتفت الى من حولهُ وقال ارى المقاومة ضرباً من الحماقة فالتسليم خير لنا فابى روفينس وقال للامبوس صانع السفن لا تكن كيهوذا فانت مقتول سلمت او قاومت فاذا اطعتَ امرهم سفكتُ دمك فقرع الربان صدرهُ ونتف شعرهُ وبكى وقال انا مكلف بمعاش اهل بيتي فاذا عصيتهم حجزوا مالي وانتزعوا مني بيتي وبستاني ووقعت في قبضة ايديهم بعد نجاة الراهبات فدعوا الرئيسة واطلعوها على جلية الامر فقالت لا تخشَ بأساً فانا اعيضك من ثمن بيتك وبستانك فاذا نجونا حملناك واهل بيتك من دمياط على سفينتنا وسرنا بك الى بلاد الروم حيث يعجز العرب عن الاقتصاص منك . فلما سمع كلامها سكن روعهُ واحسَّ ان حملاً ثقيلاً سقط عن كتفيهِ فاشار الى اخيهِ بوجوب الدفاع ثم دار الى حيث كان الفارس العربي وصاح بهِ اذا اردت القبض علينا فتعالَ بنفسك الى السفينة وافعل ما تشاء فعيل صبر

هذا وصاح برفاقهِ فاندفعوا بخيولهم الى النهر لكنهم لم يكادوا ينزلون فيهِ حتى غاصت الخيل في الوحل ولم تستطع الخطو فامرهم بالعودة وانقلب حصان براكبهِ فغاص كلاهما فترجل الباقون وجلسوا يتشاورون فيما بينهم والنوتية يرقبونهم وبعد ساعة انقسم العرب قسمين فانفرد ستة منهم القائد وربطوا خيولهم ثم استلَّ كل واحد منهم فاسهُ من منطقتهِ واخذ يعملها في جذع شجرة من اشجار النخيل وركب الخمسة الباقون وتقدموا على نيَّة ان يخوضوا النهر شمالي السفينة فيسيروا الى الغرب ويهاجموها منهُ ويركب الستة الاول اشجار النخيل فيستعينوا بها على عبور النهر والوصول اليها من الشرق وكانت الضفة الغربية حيث السفينة مكسوة بالاعشاب والانجم اليابسة فلما دار الفرسان الخمسة نحوها هبت ريح من الشرق تخطر للربان ان يحرق الاعشاب حتى اذا ما اندلع لسان اللهيب والتهمت النار ذلك اليابس علقت بالفرسان فاكلتهم او يلقوا بانفسهم في النهر فيغوصوا في الوحل لجهلهم السباحة فامر نوتيًّا بتسلق الصاري ومراقبتهم منهُ ففعل حتى اذا ما رآهم عبروا النهر وتغلغلوا في الانجم انبأ الربَّان وهذا امر بعض الملاحين فاسرعوا واحرقوا المشيم ولم يكن الاَّ كلمح البصر حتى اكلت النار ما حولها وانبعث منها دخان سدَّ منافس الجوّ ورأى الفرسان الستة في الضفة الشرقيَّة النار فامتلأوا غيظًا وحقدًا فشدوا جذوع النخيل والقوها في النهر ثم عمدوا اليها فتعلق كل واحد منهم باليد الواحدة وحمل درعهُ باليد الاخرى ووضعوا قسيهم وكنانتهم على الجذوع فتسلَّح النوتية واستعدوا للقائهم وارسل الربَّان احد رجالهِ الى العدوة الشرقية وقال لهُ اذهب واذبح خيولهم جميعًا حتى لا يفلت منهم من ينقل الخبر ولما بلغ الجند السفينة امسك احدهم بعتبة نافذتها وصعد آخر على كتفهِ فوثب الى ظهرها وطعن اول نوتي صادفهُ فخرَّ صريعًا وتبعهُ رفيقهُ فشهرا حساميهما وضرب احدهما الربان فالقاهُ جريحًا ولم يكن الاَّ كلمح البصر حتى سقطت خشبة من الصاري على رأس زعيم الجند فحطمتهُ وانتشب القتال بين النوتية والجند وفيما روفينس مهتم بتضميد جراح الربان عاجلهُ احدهم بضربة سيف فجرحهُ جرحًا بالغًا وسال دمهُ وبعد ساعة انجلت الموقعة عن ثمانية قتلى من النوتية وستة من العرب غير من جرح من اولئك ورأى النوتي من اعلى الصاري الفرسان الخمسة يلقون بانفسهم في الماء فغاصوا في الوحل وغابوا عن بصرهِ وذبح الآخر جميع الخيل فلم يفلت من اللاحقين احد وحينئذٍ خرجت الراهبات للعناية بالجرحى ونقل النوتية جثث القتلى الى البرّ فدفنوها واهتمت الرئيسة اهتمامًا شديدًا بروفينس فظللتهُ بظلتها وجلست بجانبهِ تضمّد جرحهُ فلما رأى الربَّان قال

— انا اب عائلة مثلك ولي زوجة وابنة تركتهما في منف فانّى لي بمن يحملني اليهما

ناولوني شربة ماء فاني اكاد اموت عطشًا فناولتهُ الرئيسة شيئًا من الخمر فشرب وشكرها فقالت لهُ هل لك وصية توصيها فقال نعم فيلانة لا يبنا لها عيش الاَّ في الدير فوصيتي لها ان تبقى مع امها فتؤنس وحدتها وتعزيها في حزنها آه انني اشعر ببرد شديد وقد اصابني الجرح في كتفي ولكن الالم في رأسي فايتوني بقلم وقرطاس ومتى فرغت من الكتابة فاختموا الرسالة وليأخذها البستاني الى فيلبس الطبيب فناولوهُ فاخذ يكتب ويداهُ ترتجفان من شدة الالم حتى اذا ما انتهى دفع القرطاس الى الرئيسة وقال اختميهِ وسلميهِ الى البستاني وهو يدفعهُ الى الطبيب وحينئذٍ أُغمي عليهِ فرشوا ماء على وجههِ فافاق وقال رأيت زوجتي وهيلانة في الحلم فوبخاني على ما فعلت ولكنهُ الواجب وعلى المرء ان يقوم بعمل ما قبل مفارقة هذه الدنيا الباطلة . ولم يزل يردد هذا الكلام ونحوهُ حتى انعقد لسانهُ وبعد الظهر فاضت روحهُ فجزع عليهِ البستاني جزعًا شديدًا ولما بلغوا دمياط انفصل عنهم عائدًا الى منف وكانت السفينة التي استأجرها اوريون معدةً فركبتها الراهبات واستصحبن معهنَّ الربان الجريح واهل بيتهِ واخاهُ ومن بقي من النوتية

وفي اليوم الذي مات فيهِ روفينس جاء مطران منف الى دير الراهبات يطلب تسليمهُ اليهِ باسم البطريرك وفي الغد سافر الى الصعيد ليرفع تقريرهُ الى رئيسهِ

الفصل الثالث والثلاثون

ظلَّ ماء النيل يتناقص والحرُّ يشتدُّ حتى ضاقت الارض على رحبها باهل منف واشتدَّ بهم اليأس اذ علموا من الرسائل التي جاء بها حمام الزاجل من ايثوبيا ان النيل لم يرتفع ماؤهُ في تلك الاصقاع وكثرت الانذار في النهر والترع فاخضرَّ لونها وامتلأت بالنباتات والحويوانات فضاق السكان ذرعًا بماء الشرب ولما كان الفقراء منهم لا يعنون بترشيحهِ تفشَّى فيهم وباء جارف لم يسمع بمثلهِ في مصر وزاد في خوفهم ظهور نجم ذو ذنب في القبة الزرقاء فانهم عزوا اليهِ ما كان من شدة الحرّ وتأخر الفيضان وتفشي الوباء وكان في مقدمة القائلين بهذا القول والمنادين بهِ ابولون صديق فيلبس وكان منظر البلاد يشفُّ عمَّا اصابها ونزل باهلها من المصايب فيبست الاشجار وفسدت الاثمار وانتشر الغبار على البيوت وفي الطرق واصبحت المساكن افرانًا لا تطاق لشدة الحرارة ومات السمك في النهر فقذفهُ الماء على الشاطئ فانتن وانتشرت رائحتهُ فملأت الهواء واشتدَّت وطأة الوباء حتى لم يعد الاطباء يذوقون راحة لكثرة المصابين ولم ينقطع فيلبس عن زيارة بيت روفينس لمداواة من فيهِ لكن اهل البيت كانوا على احرّ من الجمر فان ابطاء روفينس في العودة الى منف وانقطاع اخبارهِ عنهم بدَّد الفرح من قلوبهم واورثهم القلق وكانت زوجتهُ وابنتهُ تشكوان امرها الى فيلبس كلما لقيتاهُ وفي احد الايام انبأتاهُ بأن نفرًا

من جند العرب طرقوا البيت ثلاث مرات يتلمسون اخبارهُ وفي المرة الثانية الحوا على الزوجة لتخبرهم بمكانهِ فلم يسعها الاَّ كتم الحقيقة على كرهها الكذب فاجابتهم قائلة لقد ذهب الى الاسكندرية في قضاء مهمة وقد يضطرُّ الى السفر الى سورية لاتمامها ولم يكن اهل الحلّ والعقد في الفسطاط يجهلون ما اصاب روفينس ولكنهم ارادوا كتم ما أَلمَّ بالفرسان لئلاَّ يدري بهِ اهل منف فيخط شأن العرب في عيونهم

واشتدَّ الضعف بنفورس فعادها الطبيب وادرك من ذهولها انها تتعاطى الافيون لتسكين آلامها وقيل لهُ انها تجرع كميات وافرة منهُ فاستاء واخذ يبيّن لها مغبَّة عملها فتوسلت اليهِ ان لا يتركها وشأنها فاخذتهُ الشفقة واجابها الى طلبها ظنًّا منهُ بانهُ يستطيع تخفيف عذابها وانقاص ما تتجرعهُ من السمّ

وكانت كاترينا تتردد على السيدتين اليونانيتين فتطلعهما على اخبار المدينة وفي ذات يوم اخذت تصف لهما باولين وافاضت في الكلام حتى تاقت السيدتان لرؤيتها فعرضت كاترينا ان تعرّفهما بها وطلبت اليهما ان ترافقاها الى بيت روفينس لكنَّ مارتينا اعتذرت عن الذهاب بعلة الحرّ وقبلت دورا الدعوة فاحسنت باولين استقبالها وتلطفت في حديثها لكنها التزمت الحذر ولم تخلِ مجالاً لما يشتم منهُ رائحة حبها لاوريون فلما رأَتها دورا علمت انها لا تستطيع مناظرة هذه الحسناء التي تفوقها جمالاً وتعقُّلاً وعلمًا

وبعد ثلاثة اسابيع من مقتل روفينس كان فيلبس وابولون جالسين يأكلان طعام الفطور والطبيب يسرع في التهام طعامهِ لضيق الوقت فدخل العبد وقال بالباب رجل يطلب لقاء الطبيب لامر ذي خطر فاجاب هذا وقال ليس في طاقتي معالجة احد الاَّ اذا أُعطيتُ اربع ارجل وست ايدٍ فقال العبد ليس الرجل مريضًا فهو بستاني روفينس فارتعد فيلبس وادرك الغرض من مجيء الرجل وحدهُ فامر بادخالهِ واذا بهِ مكسوٌّ بالغبار من قمة رأسهِ الى اخمص قدميهِ وقد تمزقت ثيابهُ وغارت عيناهُ حتى لم يكد يعرفهُ فلما وقعت عينهُ على فيلبس بكى فقال الطبيب امات روفينس فاومأ بالايجاب ثم طفق يحدثهُ بما جرى وكيف لقي سيدهُ حتفهُ والرجلان يصغيان الى حديثهِ فلما فرغ صاح الطبيب

ايموت هذا الشهم ويخلف بعدهُ فضلى النساء وخير البنات ويبقى مثلي في قيد الحياة ثم اخذ الكتاب وقرأَهُ ولما فرغ دار الى البستاني وقال

— أَنجتِ الراهبات

— نعم

— من لنا الآن برجل ينقل خبر موته الى زوجته وابنته

— ليس من يستطيع ذلك سواك

— اصبت فغيري يا كل الحصرم وانا اضرس فقال ابولون

— ذلك واجب عليك لصديقك فما يكون من امر هاتين السيدتين اذا ابصرتا صاحبنا كما نراهُ

— قد تموتان جزعًا. ثم خاطب البستاني فقال اذا درى بك العرب مجنوك واقتصُّوا منك ولا يصعب تمييزك وانت على هذه الحال فاذهب الآن واغتسل والبث في بيتنا واكتم ما تعرفهُ لئلاَّ ينمَّ بك بعض العبيد والخدم ولا اخال السيدتين في حاجة ماسة اليك فالاجدر بك ان تقوم على العناية ببستاننا

— رأيك الصواب بعينهِ ولكني وعدت سيدي بملازمة اهل بيتهِ وانا العتيق الوحيد في ذلك البيت فلا يحسن بي مفارقتهما في مثل هذه الساعة فاذا اراد العرب قتلي فاهلاً وسهلاً بهم فحياتي لا تطيب لي الآن ثم بكى واخذتهُ الرعدة فسقط مغمًى عليهِ فاسرع اليهِ فيلبس وسقاهُ كاس خمرٍ فافاق فدعا عبدًا وامرهُ ينقلهِ الى المطبخ والعناية بهِ ولمَّا خلا الصديقان قال ابولون

— تبينت من هيئتك وانت تقرأ الرسالة ان ذلك المنكود الحظ كلفك امرًا غريبًا

— صدقت فهاك كتابهُ فاقرأهُ فتناول ابولون القرطاس وقرأ

— من روفينس المحتضر الى صديقهِ العزيز فيلبس

ارى الموت قريبًا مني واعلم انَّ ساعاتي معدودات ويدي لا تطيق القلم فساتوفَّى وبالايجاز ان همي الاول زوجتي وابنتي فكن لهما الصديق الوفي والسند الاكيد وقم على حراستهما فقد جعلتك وصيًّا عليهما بعدي وتركت لهما ما يكفيهما مؤونة التعب ويضمن لهما الراحة فاعلم ان عقاراتي في يد اخي وهو مثال الامانة والاستقامة فاذا اتاك كتابي هذا فاذهب اليهما وبلغهما بركتي وسلامي وشكري لزوجتي على حبها لي واحتمالها براحتي ورفاهتي مدة زواجنا اما انت فاسمع نصيحة شيخ عرك الدهر وبلى شرَّهُ واقلع عن حب باولين فمي نصيب غيرك فان اللواتي ولدن في القصور لا يناسبننا نحن الذين ارتقينا بجدِّنا وهمتنا فانبذ حبها واقتصر على صداقتها فهي اهل لصداقتك واكرامك وانما لا تعلق نفسك بالاقتران بها ولا تقضِ حياتك عزبًا فالمرأة ريحانة الرجل يزداد بها سروره وسعادتهُ وتتضاعف همتهُ ونشاطهُ امَّا انت فتجهل ذلك كما يجهلهُ صديقك الشيخ ابولون فقد قضى حياتهُ متقشفًا بالزهَّاد وهيلانة تحسبك خير الناس واكملهم

ولا يخفى عليك حسن تربيتها وكمال اخلاقها ولستُ بقائل لك تزوجيها وانت تحبُّ اخرى لكني اطلب اليك ان تسكنا وصديقك في بيتي مع زوجتي وابنتي فاذا فعلتِ فلن تندمي . فاصغى الى طلب رجلٍ على حافة القبر وانت وصيهما والحارس عليهما فكن اميناً في وصايتك واذكر صداقتنا. وكانت الكلمات الاخيرة معمَّاة لكثرة تعاريجها فلما فرغ ابولون من القراءة قال فيلبس وما رأيك

— اها كما يقول

— لم يؤدها حقهما من المدح

— فلا مانع يمنعنا اذاً من قبول دعوته فنستريح من هذا العناء ونقضي بقية العمر في بيت حسن ونتخلص من هذا الكهف فقد سئمت نفسي الاقامة فيهِ واراهُ يتداعى الى الخراب وليس من يرممهُ ثم ثاب الى الجدّ فقال ولكنهُ حلم يعبث براحة المرء فلننبذهُ

— على كل حال وما دام امر باولين كما هو فمن العبث النظر في هذا الشأن

— قاتلها الله فلا تبرح اتبع لنا من ظلنا وكأنَّ اسمها عنوان شقائنا على اني ساكيدها واتخلص منها. ثم ناديا البستاني واوصياهُ بوجوب الحذر وملازمة السكوت وقال لهُ فيلبس ابقَ في بيتنا ريثما انهي سيدك الى زوجتهِ وابنتهِ وليس من الحكمة ظهورك في منف فالجند يطرقون البيت كل يومٍ فاذا رأوك اوقعوا بك وعرضت سيدتيك للخطر الشديد

الفصل الرابع والثلاثون

اشتهرت مصر من قديم الزمان بمهارة سحرتها وحذاقة عرَّافيها فكان الاجانب يقصدونها من كل حدب وصوب ليتلقوا فنَّ السحر عن اهلها وكانت دورا في عداد من معهم بشهرة هؤلاء السحرة فارادت مكاشفة بعضهم علها تقف على ما خبأ لها الدهر فسألت كاترينا ان تدلها على ساحرة عليمة وطلبت اليها ان ترافقها فلبت هذه الطلب وذهبت الاثنتان الى واحدة اسمها ميديا فلما رأتهما وابصرت ما على دورا من الحلل الفاخرة والحلى الثمينة ادركت انها من النبيلات فاحسنت ملقاها ولم تحفل بكاترينا لجهلها بها فلمَّا دخلتا البيت الفتاهُ مملوءاً بالبواتق والكؤوس وامثلة الشمع واقفاص الخفافيش وزجاجات كثيرة فيها انواع الدبابات والحشرات السامة والضفادع تتصاعد فيهِ ابخرة وروائح كريهة فانقبضت نفس الزائرتين واشمئزتا اما الساحرة فاخذت تبين لها فوائد ما رأتا وطلبت اليهما ان تعودا بعد ثلاثة ايام قائلة ينقضي اليوم اشياء كثيرة لا يتمّ العمل بدونها فاذا اتيتما في الموعد الذي ضربتهُ لكما كنت على اتم استعداد فوعدتاها بالرجوع ولم يحلّ الاجل المضروب حتى ركبتا مركبة نفورس وسارتا تقصدان ميديا

وكلتاهما مضطربتان امّا دورا فخشية منهاان تأتي النبوة على خلاف ما تشتهي واما كاترينا فلانها ابصرت في صباح ذلك اليوم فيلبس خارجًا من بيت روفينس وسمات الكآبة على محياهُ وجاء بعدهُ جند من العرب فداروا في البستان وعادوا من حيث اتوا وقبل الظهر ابصرت باولين تبكي في البستان واذ خرجت زوجة روفينس وابنتهُ وقعت على عنقيهما وقبلتهما فادركت كاترينا انهنَّ لامر ما يبكين فاسرعت الى بيت روفينس لتستطلع الخبر فلقيتها مرضع باولين بوجه عبوس ومنعتها عن الدخول قائلة ان السيدات منفردات فلا يقبلن الزائرات

وفيما هما سائرتان الى بيت الساحرة طلع عليهما كوكبة من فرسان العرب فدنا القائد منهما واخذ يسألهما عن اسميهما وغرضهما من الخروج ونحوهِ فارتاعتا ولم تصدقا بالنجاة حتى اذا ما بلغتا بيت ميديا لقيتهما هذه بالحفاوة والاكرام وقد عرفت كاترينا فقالت لقد طلع الهلال وطلوعهُ من ادلة السعد وحسن الفال وقد قضيت الايام الثلاثة صائمة فطهرت نفسي من الادران وتهيأت للعمل فلا يفوتني امرٌ الآن. ثم قدَّمت لها كرسيين فجلستا ووضعت اناء على النار فلما غلا ما فيهِ وسمع ازيزهُ قالت ألا تسمعان غليان آنية السعد فهذه اصوات جدكما وبختكما ثم طفقت تعزّم وتدعو باسماء غريبة فلما فرغت من دعائها ربطت خيطًا الى بنصر يد دورا اليسرى وفعلت كذلك بكاترينا وطلبت من كلٍ واحدة شعرة من شعر رأسها وامسكت الشعرتين فالتفتهما في القدر وصاحت بهما

— ضعا الاصبع المربوطة على القلب وحدّقا الى القدر والبخار المتصاعد منها فانما يصعد هذا البخار الى ارواح النور في العلاء فتعلما وقد امتلأتا رعبًا وحينئذٍ وقفت الساحرة واخذت تدور على رجليها كانها مغزل وظلت كذلك نحو ساعة ثم جمدت فجأة وانطفأت الانوار وفاحت رائحة الطيب في البيت فسجدت ورفعت لحاظها الى السماء حتى انتشر شعرها خلفها وشرعت تنشد العزائم حتى كلَّت عن الغناء فافاقت من ذهولها وامسكت القدر وقالت لدورا هاتي سبحة دنانير فنفحتها دورا بها فوضعتها في القدر ثم سكبت بعض ما فيهِ في صفحة فاذا هو اسود كالحبر ولهُ بصيص كبصيص المرآة فحدقت اليهِ واخذت تعيد ما تراهُ فوصفت شابًّا تنطبق اوصافهُ على اوريون انطباقًا تامًّا كانهُ مرسوم امامها وقالت اراهُ مسافرًا صحبة شيخ غريب وهانذا اراهُ عائدًا من سفرتهِ ثم وقفت برهة وعادت الى الكلام فقالت وارى في المزيج صورتكِ وقد طوّقكِ بذراعيهِ وها انتما الآن واقفان امام حبر جليل في كنيسة نفيسة صفتها كذا وكذا ثم وصفت الكنيسة وصفًا دقيقًا جدًّا

فلما سمعت كاترينا كلامها احست بدوخة والم في قلبها وصدقت جميع ما انبأت بهِ خصوصًا

بعد ان اجادت في وصف اوريون ولم ينت كاترينا من وصف الكنيسة انها كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية فلما فرغت الساحرة من دورا نبهت كاترينا وطلبت منها الدراهم فنقدتها سبعة دنانير فالقتها في القدر الآخر ولكنها لم تكد تصبّ المزيج حتى سمعن اصواتاً كهزيم الرعد فاخذ منهنّ الخوف كل مأخذ وصاحت ميديا والقت الاناء من يدها فتبدد ما فيهِ وكاد يغمى عليها فاسندتها دورا وسألتها عن علّة اضطرابها فلم تجبها بشيء بل افلتت من يديها وتوارت عن ابصارها وراء الستارة وحينئذٍ دخل فتى وفتاة فجمعا الآنية والعقاقير والمساحيق وقذفا بها في فتحة في ارض البيت واطفآ النار وامسكا السيدتين فدفعاها الى زاوية البيت وخرجا فارتاعت دورا وخفيت عليها علّة هذا الانقلاب فارادت الخروج واذا بميديا داخلة فقالت ان حياتي في خطر عظيم وجزاء العرافة القتل فقولا انكما اتيتما الى بيتي لتمرّضا مَنْ فيهِ ثم سارت بهما الى غرفة صغيرة فيها نور ضئيل فالفتا فيها شيخاً وطفلاً ملقيين على سريرين من القش وقد بدت اعراض الحمّى فيهما كليهما فقالت الساحرة لتدنُ كلٌّ منكما الى سرير فاطاعتاها اما كاترينا فوقفت ترتجف خوفاً اذ لم تكن قد رأت مريضاً في حياتها واما دورا فكانت قد اعتادت تمريض ذوي الاسقام لاسيما زوجها فدنت من الطفل وامسكت يدهِ ومسحت العرق عن جبينهِ ولم يستقرّ بهما المقام حتى سمعتا قرع الاسلحة ورنينها واصوات الجند فما راعهما الاّ فيلبس الطبيب وقد دخل وراء ميديا فلما ابصرها دهش والتفت الى ميديا فاسرعت هذه وقالت ان الشفقة حركت فؤادي السيدتين النبيلتين فجاءتا لتمرضا هذين المسكينين فقال كذبتِ فلا تحاولي مخادعتي ثم اخرج دورا وكاترينا من الغرفة وقال لهما لقد اخطأتما خطأ كبيراً في مجيئكما الى مكان موبوء فعودا الى البيت واغتسلا واطرحا ثيابكما واحرقاها لئلا تقعا فريستين لهذا الداء الوبيل فخرجتا وهما لا تصدقان بالنجاة ولا تعلمان كيف درى الطبيب بزيارتهما

اما مجيء فيلبس فكان بناء على طلب مجلس منف الذي فشى اليهِ ان ميديا لا تزال تمارس العرافة فيأتيها الناس من المدينة وغيرها وفي بيتها مرضى بالوباء فارسل نفراً من الجند وكلف فيلبس ان يرافقهم ويتحقق صحة التهمتين حتى اذا ما ثبتت احداهما اقتصوا من ميديا فجاء وراى كاترينا ودورا فاخرجهما من حيث لا يشعر بهما الجند ثم امر هؤلاء بنقل المصابين وانصرف واسرعت السيدتان الى المركبة وكاترينا تقول في نفسها اذا كانت هذه فاتحة السعادة التي بشرتك بها الساحرة يا دورا فخبذا هي واودّ الاّ تنقضي. ومرّت المركبة بقصر المقوقس فاستوقفها بعض فرسان العرب وسألوا عمّن فيها فاخبرتهُ كاترينا وقد كادت تذوب خوفاً وحياء ولما رأت كثرة الجند سألت القائل عنهم فقيل لها ان اوريون متهم بتهم فظيعة فرأى الامير ان يحجز على

بيته واملاكه وان يخرج من فيه من اهله وضيوفه في الغد فشقّ ذلك الخبر على دورا فدعتها كاترينا للمبيت عندها فقبلت الدعوة ولما بلغتا البيت هرعتا الى الحمّام فاغتسلتا وذهبت كل واحدة منهما الى مضجعها

الفصل الخامس والثلاثون

كانت تلك الليلة من اشدّ ما لاقاهُ اهل بيت المقوقس فان فرسان العرب قدموا من الفسطاط نحو العتمة يتقدمهم عبادة فاحاطوا بالقصر احاطة السوار بالمعصم ولما لم يجدوا اوريون القوا القبض على نيلس الخازن وسألوا عبادة عن السيدة نتورس فقيل لهُ انها في غرفتها فارسل الترجمان اليها يستأذنها في الدخول عليها ويطلعها على سبب قدومه فاتاها هذا وانبأها بان اوريون متهم بمكيدة كادها للعرب قُتل فيها اثنا عشر فارساً من فرسانهم فاصبح بفعلته هذه جانياً يستحق عقاب الموت وحجز املاكه الى ان قال وهو متهم بالسرقة ايضاً ثم عرض عليها ما طلبهُ الوكيل من لقائها فقالت تربص مكانك ريثما اعود ثم دخلت حجرة اخرى فجرعت شيئاً من الافيون ورجعت اليه فقالت اراني مستعدة للقائه فايتوني به فدخل عبادة وقال بعد التحية ينبغي ان تخرجي من هذا البيت غداً ولك الخيار في البقاء في منف او الاقامة في بيتك الآخر في الاسكندرية فاجابت ساري في ذلك فهل قبضتم على اوريون

فقال كلاّ ولكننا لا نجهل مكانهُ فسنقبض عليه بعد يوم او يومين ومتى فعلنا فجزاؤهُ الموت فقالت ومن يتهمهُ بالسرقة فقال بطريركهُ

فقالت ابنيامين ثم تبسمت وقالت ولو درى بنيامين بما اعددتهُ لهُ لما اتهمهُ هذه التهمة الفظيعة قالت ذلك مشيرة الى وصيتها التي اوصت فيها بجميع مالها للبطريرك والكنيسة وحينئذٍ نهضت واومأت الى عبادة بالانصراف فخرج وهو يقول في نفسه اذا لم تكن مجنونة فهي بطل في صورة امرأة

ولما خرج دعت جواريها فحملنها الى غرفتها ووضعنها في سريرها فامرت احداهنّ بان تأتيها بصندوق صغير دلتها على مكانه فجاءت به ووضعتهُ على المائدة بجانب السرير ولما فعلت امرتهنّ جميعاً بالانصراف وعمدت الى الصندوق ففتحتهُ واخرجت منهُ كتابين بخط زوجها كتبهما اليها قبل زواجها وقصيدة نظمها اوريون لها فحاولت قراءة الكتابين والقصيدة فلم تقلح فعادت الى الصندوق وابرزت منهُ ذؤابتين من شعر ابنيها المقتولين وغديرة من شعر زوجها فلمست الجميع وطفقت تتأملها وقد غلب عليها الحنوّ وهاجتها الذكرى ثم تجرعت شيئاً من الافيون وعادت تتأمل الغدائر وهي تقول لنفسها اريدون طردي من بيتي حيث قضيت اهنأ ايام حياتي فاحببت زوجي وربيت اولادي وفيه كنز آمالي وذكرى ايام صباي أأطيع هذا

العبد بعد ان كنت في قمة المجد والعز اذا هم لا يعقلون وحينئذٍ مثلت امامها خيالات زوجها وولديها المقتولين وعقبها خيال اوريون ورأت زوجها في السماء فاتحًا ذراعيهِ ليرحب بهِ وقضت بضع ساعات على هذه الحال نهضت في خنامها فسكبت ماءً في زجاجة الافيون وذوَّبت ما فيها من الحبوب ثم جرعت المذوب دفعة واحدة واسرعت الى سريرها وقد انبسطت اسارير وجهها وبدت عليهِ امارات الراحة والطمأنينة لكنها لم تضطجع حتى احست ببرد شديد فنادت جاريتها وقالت اسرعي وادعي كاهنًا فاني في غمرات الموت فركضت الجارية الى القهرمان واخبرتهُ بامر سيدتها فاستأذن هذا عبادة فاذن لهُ في الذهاب فلما خرج من القصر لقي شماسًا فدعاهُ وادخلهُ الى غرفة نفورس فالفياها في حشرجة الموت وقد ضاع رشدها ولما دنا منها الشماس ظنتهُ اوريون فاخذت تدعوهُ باحب الاسماء فزودها الاسرار وهي غائبة عن الوعي واعتراها برد شديد ورجفة فاسلمت الروح فبكى سبك بكاءً مرًّا حزنًا عليها وخرج الى عبادة فانبأهُ بموتها فانقبض والتفت الى احد رجالهِ فقال كان في نيتي رعاية هذه المرأة واكرامها فماتت ويتهمونني في المدينة بقتلها ثم انقطع عن الكلام فجأةً وقال في نفسهِ من يسعى في امتلاك بلاد لا ينبغي لهُ ان يكترث لهذه الحوادث

البراكين واسبابها

وحادثة مرتنيك

العاقل مَن رأى العبرة فاعتبر بها واستفاد منها ولذلك لم تكد انباء ما حلَّ بجزيرة مرتنيك وجزيرة سنت فنسنت تصل الى الاندية العلمية حتى اوفدت كثيرين من كبار علمائها للبحث عن اسباب ما حلَّ بهما وما يمكن ان يستنتج منهُ من النتائج العلمية وما يمكن ان يبنى عليهِ في الاستدلال على ثوران البراكين قبل حدوثهِ

وقد كانت الاخبار التي وردت عن هذا الثوران حال حدوثهِ صحيحة منطبقة على الواقع لان لا غرض لمرسليها الاَّ الاخبار عمَّا حدث على مرأى منهم اوعمَّا بلغهم خبرهُ . ثم هرع مكاتبو الجرائد اليومية ولاسيما الجرائد الاميركية وهؤلاء غرضهم الاول التهويل والتعظيم لكي يزيد وقع اخبارهم في النفوس ويكثر ما يباع من جرائدهم فلم تعد الاخبار تروى على صحتها ولذلك اضطررنا ان نمسك عن اذاعتها في المقتطف بعد ما اذعنا الاخبار الاولى الصحيحة الى